مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

ديوان البارودي

للدكتور زكي مبارك

تمهيد — نقد مقدمة هيكل باشا — نصيب البارودي من علوم اللغة العربية — الخريات والغراميات — الجديد في شعر البارودي — التحكم في التاريخ — الطبيعة بين الصمت والنطق — المستغربون في عهد توفيق — تاريخ الشعر العربي — المصريون في عهد البارودي — ما صنع البارودي في منفاه

تمهيد

المقرر للمسابقة هو الجزء الأول، طبع دار الكتب المصرية وشرح الأستاذين: علي الجارم بك، ومحمد شفيق معروف؛ وهو يطلب من مخازن وزارة المعارف ومن شهيرات المكاتب

وللشارحين كلمة يشكران فيها النقراشي باشا «لاهتمامه بإنجاز طبع الديوان»، وهيكل باشا «لتكرمه بكتابة التقديم» وجعفر والي باشا «لكبير معونته»، والصيد أشرف البارودي «لإمدادها بأصول الديوان الخطية»

وكنت أحب أن يشير الشارحان إلى أن عناية وزارة المعارف بطبع دواوين الشعراء الذين رفعوا اسم مصر في العصر الحديث ترجع إلى العرابي باشا، فهو صاحب هذه الفكرة، وفي عهده ظهر ديوان حافظ ابراهيم سنة ١٩٣٧

وكنت أحب أيضاً أن يشيرا إلى الظرف الذي كُتب فيه التقديم، وقد تركه الدكتور هيكل باشا بدون تاريخ، لسبب توضحه الأسطر الآتية:

كانت وزارة المعارف إلى الدكتور هيكل في وزارة محمد محمود باشا الأخيرة، وفي تلك الأيام بُدِيء بطبع ديوان البارودي، وكان مفهوماً أن هيكل باشا سيكتب مقدمة الديوان؛ ثم استقالت وزارة محمد محمود باشا وتلتها وزارة علي ماهر باشا، وفي الوزارة الثانية كان النقراشي باشا وزير المعارف، فكتب إلى هيكل باشا يدعوه إلى كتابة مقدمة الديوان، مع أن ظواهر الأحوال كانت تقول بأن بين الرجلين شيئاً من الجفاء

ولو أشار الشارحان إلى هذه اللمحة الأدبية لكانت شاهداً جديداً على ما عند رجالنا من كرائم الآداب

وسكت الشارحان عن الشارح الأول، كما سكت عنه هيكل باشا، وفي الطبعات العلمية لا يجوز هذا الإهمال

ويستطيع طلبة السنة التوجيهية أن يسألوا أساتذتهم عن ذلك الشارح، إن كان يهمهم الاستقصاء

نقد مقدمة هيكل باشا

تقع هذه المقدمة في أكثر من ثلاثين صفحة بالقطع المتوسط، وقد كُتبت في ساعات غلب فيها الصفاء، فقد كان الدكتور هيكل في عزلة تشبه عزلة النساك بعد خروجه من المعارف، وكان يعاني الكَلَف بالخلوة إلى القلم بعد أن شُغِل عن الأنس به عدداً من الشهور الطوال

هي مقدمة جيدة جداً، وربما جاز القول بأنها أجود ما صدر عن الدكتور هيكل من الدراسات الأدبية، فقد نفذ إلى أعماق العبقرية البارودية، واستطاع في بعض النواحي أن يذيع سرها المكنون

وسيجيء في الامتحان التحريري سؤال أو أسئلة من هذه المقدمة، فمن الواجب أن نتناولها بالنقد الرفيق، لنساعد طلبة السنة التوجيهية على إدراك ما فيها من مقاصد وأغراض، فالنقد هو الذي يوجههم إلى فهم مدلولها الصحيح، وهو الذي يهديهم إلى مكانة البارودي في تاريخ الأدب الحديث

نصيب البارودي من علوم اللغة العربية

نص الدكتور هيكل باشا مرتين على أن البارودي كان يجهل النحو والصرف والعروض، والنص على هذا مرتين في المقدمة يشهد أن هيكل باشا لم يكن في هذا الحكم من المرتابين

فعمن أخذ (حيثيات) هذا الحكم القاسي؟

أخذه عن الشيخ حسين المرصفي، فقد نص في (الوسيلة الأدبية) على أن البارودي كان يجهل النحو والصرف والعروض؛ وكان يجب على الدكتور هيكل أن يذكر أن الشيخ المرصفي لم يقل

هذا القول إلا فى مقام الثناء على ما كان البارودى يملك من بوارق الفطرة والطبع ، وإلا فمن العسير أن نصدّق أن البارودى كان يجهل ما لا يجوز جهله من أصول النحو والصرف والعروض

ولكن أين الشواهد على علم البارودى بعلوم اللغة العربية ؟

فى الديوان رسالة مثبتة بالزنكوغراف ، وهى رسالة لم يلتفت إليها الدكتور هيكل ، ومنها أتخذ الشواهد على ضعف الحكم الذى نقله عن صاحب « الوسيلة الأدبية »

وإلى مساليه أسوق الحديث :

١ — فى ص ٤٣ جاء بخط البارودى فى وصف ما عانى هو ورفاقه من هياج البحر :

« ومكثنا على ذلك ثلاثاً ، لا نجد فيها غياثاً »

وعند تأمل الخط نجد أن الأصل (ثلاث) و (غياث) ، وأن البارودى التفت إلى الخطأ النحوى فرسم ألفين فوق هاتين الكلمتين ، وهذا يشهد بضعفه فى النحو ، ولكنه لا يشهد عليه بجهل النحو ، بدليل هذا التصحيح

٢ — وفى ص ٤٦ نجد بخط البارودى :

« هيهات ، ما كل شامة خالاً ، ولا كل حلقة خلخالاً »

وعند تأمل الخط نرى أن الأصل (خال) و (خلخال) ، ونرى البارودى وضع ألفين فوق هاتين الكلمتين

والتصحيح فى هذه المرة أدق ، فهو فى الشاهد السالف كان التفاتاً إلى حكم الظرف وحكم المفعول فى الإعراب ، وهو فى هذا الشاهد التفات إلى حُكم (ما) الحجازية ؛ وكان يسعه أن يمحو هاتين الكلمتين من التصحيح ليسير مع النحوى الذى يقول :

وَمُهَفْهَفِ الأعطافِ قلت له : انتسب

فأجاب : ما تنسلُ المحب حرامُ

والذى يفرق بين (ما) الحجازية و (ما) التميمية لا يوصم بجهل قواعد اللغة العربية

٣ — وفى ص ٤٩ نجد بخط البارودى :

« بل حسبت أن قطرات المُزن ، دموع أسالها زفرات الحُزن » ! ؟

وننظر إلى العين من دموع فنراها كانت (عاً) ثم أصارها البارودى (عٌ)

فما معنى ذلك ؟ معناه أنه توهمها أولاً مفعول (حسب) ثم أدرك أنها خبر (أن) والذى يجهل النحو لا يدرك هذا الفرق

٤ — وفى الصفحة نفسها نجد البارودى يقول :

« اللهمّ يا هادىَ الضُلاّل فى الليل المُدلهمّ ، وناصر الملهوفين فى غمرة اليوم المسلهمّ »

وننظر فنجد البارودى محا كلمة (الملهوفين) وأثبت كلمة (الهُلاّك) حرصاً على الازدواج ، فنفهم أنه كان يعرف علم البديع

٥ — ومن هذا ما جاء فى ص ٥٠ حيث يقول :

« ما وعد إلا وأخلف ، ولا سالمَ إلا وأتلف »

فقد محا (سالمَ) وأثبت فوقها (أوعد) حرصاً على الجناس والطِّباق !

٦ — وفى مقدمة الديوان يحدثنا البارودى عن (ذِكر الشىء باسم غيره لمجاورته إياه) فنفهم أنه كان يعرف أشياء من علم البيان

٧ — ونصّ البارودى على قصائد فيها (لزوم ما لا يلزم) ، فكيف يقع هذا من رجل يحكم عليه هيكل باشا بجهل القوافى ؟

يضاف إلى هذا أحكامه على الشعراء وهى تدل على بصره بالنقد الأدبى ، وكذلك تدل استفادته من المعاجم على فهمه لأصول علم الصرف

وصفوة القول أن البارودى كان على بينة من علوم اللغة العربية ، وإن لم يصل إلى التفوق فى تلك العلوم ؛ فقد كان يعتمد على فيض الفطرة والطبع ، وهما أفضل أدوات الشعراء

الخمريات والغراميات

وطاب للدكتور هيكل باشا أن يؤكد أن البارودى لم يكن صادقاً فى الخمريات والغراميات ، وقد جزم بأن قصائده فى هذين الفنين لم تكن إلا محاكاة لأساليب القدماء

وهذا الحكم صواب من جانب وخطأ من جانب ، فهو صحيح فى الخمريات لأن أشعار البارودى فى الخمر لا تخلو من ضعف ، ولكن هذا الضعف لا يرجع إلى أن الخمر لم تذهب بعقل البارودى ، كما يقول الدكتور هيكل ، وإنما يرجع إلى أن وصف الخمر فن لا يحسنه جميع الشعراء وإن كانوا فى حبها من الصادقين

أما غراميات البارودى فهى صدق فى صدق ، وأشعاره فى العشق آية فى الإفصاح عن صَبَوات القلوب ، وقد تذكّر بغراميات الشريف فى بعض الأحيان

وما الموجب لأن تقول البارودى « كذبت » حين يتحدث فى أشعاره عن هواه ، مع أنه يقول فى مقدمة الديوان :

« إنما هى أغراض حركتنى ، وإياه جمح بى ، وغرام سال على قلبى »

أما أن كان الدكتور هيكل يريد تنزيه البارودى عن مآثم الفتيان ، فكلامه وجه مقبول ، فقد كان البارودى رئيس الوزراء فى بعض العهود ، ويجب على الوزراء أن يعيشوا بلا قلوب

الجديد فى شعر البارودى

ويقول الدكتور هيكل باشا إن الجديد الذى استدعى الإعجاب بشعر البارودى « هو نزوعه إلى تصوير الواقع كما هو فى بساطة وسلاسة وقوة دون اعتماد على محسنات اللفظ البديعية »(١)

ونقول إن هذا التصوير بعيد من أذهان من عاصروا البارودى وكانوا مولعين بالزخرف والبريق ، وإذن يجب على الدكتور هيكل أن يتلمس رأياً غير هذا الرأى ، وهو قد اهتدى إلى الصواب بعد ست عشرة صفحة فقال :

« إن هذا الشعر كان جديداً كله ، كانت محاكاته الأقدمين جديدة ، وكانت معارضته إياهم جديدة ، وكانت رياضته القول على مثالهم جديدة »(٢)

فإذا أعيد طبع الديوان فليتفضل الدكتور هيكل بحذف الحكم الأول والاكتفاء بالحكم الثانى

التحكم فى التاريخ

البارودى قصيدة لامية قال فيها ما قال فى التنديد بالمصريين ، وينص الديوان على أنها قيلت فى عهد « إسماعيل » ولكن الدكتور هيكل يتعسف فيحكم بأنها قيلت فى عهد « توفيق »

فهل يملك الحق فى نقل القصائد التاريخية من عهد إلى عهد ؟

إن عصر إسماعيل كان مبعث نهضة بإجماع الآراء ، وعصور النهضات لا تخلو من بواعث الحب والبغض ، والحمد والملام ، فكيف نستبعد صدور قصيدة ثائرة فى عهد إسماعيل ؟ وكيف عرف هيكل باشا أن البارودى لم يذق فى عصر إسماعيل غير القرار والاطمئنان ؟

لو أن الدكتور هيكل التفت إلى القصيدة التى أثبتها بيده فى ذيل الصفحة الثالثة والعشرين لرجع عن ذلك الاعتساف ، وهذه إشارة فيها كل البيان

الطبيعة بين الصمت والنطق

وشاء الدكتور هيكل باشا أن يحكم بأن « البارودى إذ كان يسجل الصور فى شعره لم يكن يسجلها فى صمتها وسكينتها على ما يولع به عشاق الطبيعة الصامتة »

فما معنى هذا الكلام ؟ ومتى صمتت الطبيعة فى أوصاف الشعراء ؟

لعله يريد أن يقول إن البارودى كان قوى الشعور بحيوية المناظر الطبيعية ، وبما فيها من فاعلية وانفعال ، فقصر به التعبير عن بلوغ ما يريد

المستنيرون فى عهد توفيق

هم فى نظر الدكتور هيكل رجال الجيش ، وقصر الاستنارة على رجال الجيش فى ذلك العهد غير صحيح ، فقد كان فى مصر جماعات علمية وأدبية تفوق فى الاستنارة رجال الجيش ، والصواب وضع كلمة « السياسيين » فى مكان « المستنيرين » فقد كان رجال الجيش ساسة البلاد فى ذلك الحين

تاريخ الشعر العربى

ويقول الدكتور هيكل إن الشعر العربى قضى ألف سنة فى انحلال إلى أن بعثه البارودى ، فمن أين جاء بهذا القول ؟

أنحكم على ماضينا الأدبى هذا الحكم الظالم فى سبيل إنصاف البارودى ؟ ليرجع الدكتور هيكل إلى « مختارات البارودى » إن شاء ، فإن فعل فسيعرف أن البارودى يرى غير ما يراه ، فقد وصل اختياره إلى القرن السابع ، وصح له أن يحكم بأن سبط ابن التعاويذى وهو من شعراء القرن السادس كان يتابع الشريف الرضى ويمشى على أثر مهيار الديلمى . والبارودى الذى اعترف بحياة الجزالة الشعرية فى القرن السابع كان من شعراء القرن الثالث عشر ، وعلى هذا تكون المدة التى انحل فيها الشعر نحو خمسة قرون ، فكيف يجعلها الدكتور هيكل عشرة قرون ويوصى بإسقاطها من الحساب ؟

يشفع للدكتور هيكل أنه أراد المبالغة فى التنويه بمقام البارودى ، ولكن الإحسان إلى البارودى كان يتم بدون الإساءة

(١) ص ١٤
(٢) ص ٣٠